

إيلاف قرشي

ملاحظات حول عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام

د. صالح رادكة
الجامعة الاردنية

تحاول هذه الدراسة التعرف على عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام مع التركيز على دور الإيلاف ضمن هذا الإطار ، إذ من الصعب الحديث عن الإيلاف بمعزل عن العوامل الأخرى لما بين هذه العوامل من تداخل .

يحتل الإيلاف بين العوامل الملكية أهمية خاصة ، ذلك أن الإيلاف اختراع قرشي هيا لكثرة القوة المادية اللازمة . ورغم هذه الأهمية لم يحظ من الدارسين بالاهتمام الذي يستحقه ، ففي الغرب لم تدرس هذه الظاهرة التاريخية دراسة وافية اللهم إلا ما كان من إشارات مفيدة ، أشار إليها ج. كستر في معرض حديثه عن مكة والحيرة وصلتهما بالقبائل العربية (١) . وما كتبه لامانس (٢) عن الإيلاف لا يعط الصورة المطلوبة . وحاول محمد حميد الله (٣) تلافى هذا النقص ، ومع اعترافه بجدارة الموضوع بالبحث ولومه الباحثين الغربيين على تقصيرهم ، لم يصل إلى تحقيق الغرض المطلوب الذي يشفي غلة الباحث .

وفي المشرق العربي ظهرت هنا وهناك مقالات حول الإيلاف (٤) توجهت وجهات مختلفة ، وكان في هذه المقالات الكثير من الفائدة ، إلا أن الحاجة لدراسة جادة للإيلاف ما زالت قائمة .

الإيلاف عند المفسرين واللغويين

قبل أن نمضي في استعراض نشأة الإيلاف ودوره في السيادة المكية علينا أن نعرف شيئاً عن معاني الإيلاف .

اختلف القراء في قراءة « الإيلاف » ، فمنهم من قرأها « لالاف » بغير ياء بعد الهمزة ، ومنهم من قرأها بياء ساكنة من غير همزة « ليلاف » ، ومنهم من قرأها بهمزتين مخففتين بكسر الأولى وتسكين الثانية على وزن « لعلان » ، وقرأها الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل : « ليعلاف » (٥) .

ويرى ابن جرير الطبري أن الصواب من القراءة : « لإيلاف قریش إيلافهم » باثبات الياء فيهما بعد الهمزة من آلت الشيء أولفه إيلافاً ، لاجتماع الحجة من القراء عليه ، وللعرب في ذلك لغتان : آلفت ، وآلفت (٦) .

لقد أورد المفسرون واللغويون معاني متعددة للإيلاف ، نورد المشهور منها :

آلفت : وتعني المؤالفة (٧) .

آلفت : من الإلف والتأليف أي الجمع والتقريب (٨) .

وقيل أنها مشتقة من الالف أي الاعتياد على الرحلتين أو مؤالفة الإقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم (٩) .

وقيل في معاني الإيلاف : الأجارة ، فيؤلف : يجير ، ولذلك سمي أبناء عبد مناف ، بالمجيرين كما سموا بالآلاف ، وهم هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل (١٠) .

وذهب بعضهم إلى أن الإيلاف الوارد ذكره في القرآن الكريم يعني : الأحلاف والاتفاقات والعهود ، وبالتوسع في المصطلح يعني الميثاق (١١) . وفي رواية لابن عباس أنها تعني : العهد والذمام (١٢) ، وزاد أصحاب المعجم الوسيط على ما تقدم القول : أنها الأمان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض (١٣) . ويرى بعض الباحثين المحدثين أنها تعني الحماية أي الحلف الذي يضمن الأمن (١٤) .

إن هذا التفاوت في معاني الإيلاف إنما يرجع إلى التفاوت في فهم المعنى العام

للأيلاف كظاهرة عملية لقريش ، أو فهم المعاني اللفظية من حيث علاقتها بنعمة الاستقرار والاجتماع في حرم الله ، والاعتقاد على القيام بالرحلات التجارية بأمن وطمأنينة بفضل الاحلاف أو العصم أو الحبال (١٥) التي أخذها سادة قريش من زعماء الدول المجاورة ، ومن رؤساء القبائل النازلة على طرق القوافل . ويتضح من خلال هذه الدراسة المعنى العملي المقصود بالأيلاف .



ان ظاهرة الايلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية ، فمن الناحية الطبيعية كانت مكة ولا تزال منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم ، وذلك بعكس يثرب ، فلا بد والحالة هذه من الاعتماد على التجارة أو أية حرفة أخرى لتأمين معاشهم . اما ما يتعلق بالعوامل التاريخية فيقصد بها نشوء مكة حول ماء زمزم وتطورها وعلاقة الكعبة بذلك . فموقع مكة على الطرق التجارية وقداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس ، وما نشأ عنه من تنظيمات جعلها عرضة لاطماع القبائل المتجولة في المنطقة .

فقد استوطنتها جرحم وتفاضت رسوما مقابل الدخول إليها (١٦) ، وقصدها الزوار من كل فج ، وفيهم الملك والامير والشيخ ، ومعهم الهدايا والقرايين (١٧) . ولعل هذه الزيارات كانت المقدمة التي قامت عليها علاقات مكة الخارجية فيما بعد . وبعد جرحم استولت عليها خزاعة . وبقيت خزاعة سيدة المكان حتى أخرجتها قريش بقيادة قصي بن كلاب (١٨) . وتعتبر فترة قصي المكية الأساس الذي قامت عليه عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الأيلاف . ولقد نسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداء لقصي مثل : الندوة ، والسدانة والسقاية والحجاجة ، ثم تبع ذلك نظام الخمس ، ولا شك أن لهذه التنظيمات غايات اقتصادية ، ويفهم ذلك من الهدايا والرسوم التي كانت تقدم أو تجبى من الزائرين أو العابرين لمكة ، بالإضافة الى دور العوامل السابقة في احترام القبائل العربية لمكة وسكانها قريش ، وهذه العلاقة بدورها مهدت لنجاح قريش في تأمين سير القوافل التجارية .

وكان لنظام الخمس (١٩) اثره في تمتين الروابط القرشية مع القبائل العربية الاخرى واطهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب . وشايح قريش في تحمسها لطقوسها وتمايزها فريق من العرب يرون ما تراه قريش ، بل ان بعضهم أعلن استعدادهم للذود عنها وعن طقوسها ، وتطوع للدفاع عن ذلك ، كما فعل الفريق الذي تزعمه صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم (٢٠) . ولما قررت غطفان أن تنشئ حرما كحرم مكة ، هاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرمهم (٢١) .

ان تضافر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية محلية في البداية ، تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضا . فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الاحباش لليمن ، واستفادت قريش من العلاقات العدائية بين الفرس والروم فنهجت نهجا حياديا في تعاملها مع المعسكرين ، الامر الذي مكنها من الاتجار مع العراق والشام (٢٢) .

ولا يغيب عن الذهن انه لم يكن يسمح للتجار الاجانب بالدخول داخل الامبراطوريتين لان الفرس والروم لم يكونوا يثقون بهم ، لذلك اقتصر دخول تجار مكة على اسواق معينة ، مثل الحيرة وبصرى وغزة على أطراف الدولتين (٢٣) .

ولذلك كان على التجار العرب ان يقدموا تضحيات كثيرة ، كدفع الضرائب الباهظة والمستمرة ، والضرائب الحدودية في أرض القبائل ، كما كان عليهم أحيانا أن يسلموا الرهائن . وفرضت مكة بدورها ضرائب ورسوم مماثلة (٢٤) .

لقد استدعت هذه الاوضاع ان يعمل زعماء قريش على تأمين وصول قوافلهم بأمان الى كل الاسواق العالمية الممكنة ، وبخاصة تلك المحيطة بجزيرة العرب كسورية والعراق والحبشة ومصر . وقد تحقق لقريش هذا الحلم على يد هاشم بن عبد مناف الذي كان عهده نقطة تحول في تاريخ مكة . ولعل عظمة قريش الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت جعلت من عمرو بن مناف « هاشم » مثلا أعلى أفاضت الروايات في ذكر شمائله ، ويهمنا واحدة من هذه الشمائل، وهي «ايلاف» .

تذكر المصادر العربية ان سنوات من الجذب أصابت مكة ، ذهب بالاموال . فخرج هاشم الى الشام وأظهر من الكرم وحسن المعاملة ما أفاضت به أخباره حتى بلغت قيصر - ولعله أحد حكام الروم في سورية - فأمر باحضاره وأعجبه صورة هاشم وحديثه فأظهر له ودا ومحبة . ولما أيقن هاشم من ود الحاكم الروماني ، أخبره أن قومه قريش هم تجار العرب ، وطلب اليه أن يكتب لهم أمانا بدخول بلاد ، يبيعون فيها أدم الحجاز وثيابها فيكون أرخص بيعا للروم ، فكتب الحاكم الروماني أمانا لمن يقدم من التجار القرشيين الى بلاده . وأقبل هاشم بذلك الكتاب ، وجعل كلما مربحي من العرب بطريق الشام يأخذ من أشرافهم ايلافا . والايلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، وانما هو أمان الطريق (٢٥) . وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والأدلاء من القبائل المجاورة ، وكان هؤلاء بدورهم أدلاء للقوافل يعرفون مواقع الآبار والعيون ، ويتقاضون مقابل خدمتهم أجورا يتفق عليها (٢٦) .

وبحسب الروايات العربية يكون هاشم بن عبد مناف أول من أخذ الأيلاف ، ثم أخذه المطلب ثم عبد شمس ثم نوفل أصغرهم (٢٧) .

أخذ أبناء عبد مناف الأيلاف من رؤساء القبائل لأسباب منها ، أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الفارات وظلاب الفوائل كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، كبنى طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون للبيت ويدينون بالحرمة له (٢٨) . ومنها أن الأساليب السابقة للأيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل . وتطلق المصادر العربية على الأمان الذي أخذه هاشم من ملك الروم وأشرف قبائل العرب أيلافا تارة ، وتارة أخرى عهدا أو ميثاقا أو حبلا أو عصما (٢٩) .

يذكر أبو علي القالي بوضوح أن هاشما أخذ عهدا من قيصر وأيلافا من شيوخ القبائل ، ويعني بأيلاف القبائل أن يأمن التجار في أرضهم بغير حلف (٣٠) . والعهود هي المعاهدات والاتفاقيات ، إذ أن رعاية التجارة المكية فيها كسب لقريش التجار وللدول المعاهدة ، ولو لم يكن فيها كسب للدول المعاهدة لما سمحت للتجار بدخول بلادها .

وتأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة طويلة . فقريش التي خبرت طبائع الناس - وبخاصة طبائع البدوي - من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية ، هي وحدها القادرة على ابتكار الأسلوب الأفضل للتعامل معهم ، وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق ، وبعد أن كانت هذه القبائل تفسر على القوافل وتنهب ما تحمله . أصبحت عنصر الأمان ، تجوز بالقوافل حتى تبلغها مأمنا .

ولم يكن هذا الأمان بدون مقابل « أي غير مشروط كما ذهب بعض الباحثين المحدثين » (٣١) فقد أشركت قريش القبائل في تجارتها ، فحملت لرؤسائها البضائع وكفتمهم حملانها ، وأدت اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . وحقق هاشم بهذا الأسلوب العملي الأمان للقوافل ، واستفاد رؤساء القبائل باسراهم في المشاريع التجارية المكية « فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا كما يقول الجاحظ » (٣٢) .

وكان تحقيق الأمان مطلبا عزيزا في منطقة الحجاز وبلاد العرب ، وتحقيق هذا المطلب بالأيلاف ، فانطلقت السفارات التجارية في كل اتجاه وازداد حجم القوافل وتنوعت السلع ، كل ذلك بفضل الأمان الذي أحرزه المكيون للتجار . فحق لله سبحانه وتعالى أن يمن على قريش بقوله : « أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن أخوة هاشم فعلوا مثله بأخذ عهود الايمان لتجارة قومهم من دول أخرى غير سورية، فأخذ عبد شمس بن عبد مناف عهدا من صاحب الحبشة، وأخذ المطلب بن عبد مناف عهدا من ملوك اليمن ، وأخذ نوفل بن عبد مناف عهدا من ملوك العراق . وكان كل واحد منهم يأخذ الايلاف من رؤساء القبائل ما بين مكة والجهة التي أخذ العهد من حاكمها (٢٤) .

يسمى البلاذري (٢٥) عهود أبناء عبد مناف بالعصم ، ومعناها المنع ، وعصمه تعني منعه مما يوبقه (٢٦) . ويسمى الطبري (٢٧) بدوره هذه العهود المأخوذة من الملوك والرؤساء : حبالا ، ومفردها حبل : وهو الرباط ، وجمعها أحبل وأحبال وحبال وحبول ، والحبل : العهد والذمة والامان (٢٨) . وبعض المصادر تسمى هذا حلفا أو ميثاقا ، والحلف العهد يكون بين القوم ، وحالفه أي عاهده ، والميثاق (٢٩) : العهد . والعهد كما هو واضح يفيد المعاني السابقة أي الميثاق والامان ، واليمين يستوثق بها من الطرف الثاني .

والمعاني السابقة التي استخدمتها المصادر العربية ، تفيد عقد اتفاقيات بين أبناء عبد مناف ورؤساء الدول التي ذكرناها سابقا . وذكرت بعض المصادر أن أبناء عبد مناف أخذوا العهود من حكام مصر وبلغت تجارتهم أُنقرة (٤٠) . وتحقق هذه الاتفاقيات منفعة متبادلة تشبه في غاياتها وأهدافها المعاهدات بين الدول في العصر الحاضر .

أما ايلاف القبائل فيعتمد بالدرجة الاولى على خبرة القرشيين بالطبائع البدوية وتأنيسها وتأليفها ، بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة ، أي أن الايلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد ، نجح أبناء عبد مناف في ايجاده حتى أصبح لدى القرشيين والقبائل الاخرى عادة يصعب الخروج عليها . وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة ، فهذا الجاحظ يقول : « خير الناس ألفهم للناس » (٤١) ولعل هناك علاقة ما بين هذا القول وفعل قريش في الايلاف ، ومن ثم في السياسات القرشية المتبعة ، وربما كانت منها سياسة المؤلفة قلوبهم فيما بعد . ويبدو من حديث هاشم لقيصر أن الجلود والثياب الحجازية هي السلع المهمة في التجارة المكية مع سورية ، ويبدو أيضا انه حتى عهد هاشم ابن عبد مناف كانت التجار نشاطا فرديا ، واستمر هذا النشاط الفردي ولم ينقطع حتى بداية العهد الاسلامي ، وذكر عدد من الصحابة في عداد من كان يقوم بتجارته الخاصة .

فقد اشتهر عبد الله بن ابي ربيعة بالتجارة بالعطر اليمني ، وكان يبعث الى أمه

في مكة من هذا العطر حيث كانت بدورها تبيعه نقدا او دينا ، واذا باعت دينا كتبت مقدار الدين في كتاب (٤٢) . وكان دحية بن خليفة الكلبي يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام (٤٣) ، وكان حكيم بن حزام يتجر بالبر الى اليمن وبلاد الشام ، وعمرو بن العاص كان تاجر ادم وعطر يختلف الى مصر (٤٤) . وبعد ايلاف هاشم وأخذه عهد الامان من حاكم سورية ، انطلقت المشاريع التجارية الكبرى من مكة ، ونظمت الرحلتان في الصيف والشتاء . وقد يستدل من طلب هاشم لآمان قيصر الروم ان تجار قریش كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل رجال الحكم الروماني . ولعل هؤلاء التجار كانوا يعالجون مشاكل رجال القبائل البدوية بطرقهم الخاصة ، ولم تكن هذه المعالجة سهلة ، فلربما كانت تكلفهم غالبا ، ولا تكون بعد ذلك النتائج مضمونة ، وبقي هذا الحال حتى نظم أبناء عبد مناف العلاقات التجارية مع رؤساء القبائل بشكل حاسم ودائم .

وذكر ابن سعد ان قيصر كتب مع كتاب آمانه لهاشم كتابا آخر للنجاشي طلب اليه فيه أن يأذن لتجار قریش بدخول بلاده (٤٥) .

والراجع من خلال مقارنة الروايات حول ايلاف هاشم ، أن سفارات أبناء عبد مناف الى البلدان المذكورة آنفا ، انما كانت بعد عودة هاشم من سورية . ويرجح ذلك قول بعض المصادر بأن أخوة هاشم انما قاموا بعملهم - أي أخذ عهود الامان - بعد وفاة هاشم (٤٦) . كما أن هاشما لم يطلب مقابلة الحاكم الروماني لتحقيق هذا الغرض وانما جاء اللقاء مع الحاكم الروماني محظ صدفة ، وان هاشما استغل هذه المقابلة بذكاء . وأغلب الظن ان هذا التحول التجاري الكبير انما حصل في مطلع القرن السادس الميلادي ، لان هاشما - على الاغلب - توفي في هذه الفترة ، بدليل تصريح بعض المصادر بأن هاشما كان معاصرا لقباز الملك الفارسي ، والهارث ابن عمرو الكندي اللذين عاشا في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٧) . ومن الحوادث الثابتة في التاريخ لقاء عبد المطلب لأبرهة الحبشي عام الفيل ، وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانفقت المصادر أن هذا الحدث الكبير كان سنة ٥٧ م ، وتذكر المصادر أن عبد المطلب كان حينذاك شيخا وقورا ، أي ان عمره ما بين ٦٠ - ٨٠ سنة ، وهذا يرجح صواب ما ذهبنا اليه في تحديد تاريخ ايلاف هاشم في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٨) .

وظاهرة الايلاف ابتكار قرشي نقل تجار مكة من تجار محليين الى وسطاء عالميين وبسياسة متوازنة وواضحة في محيط العلاقات الدولية ، وبتنظيم نقابي مكثي ، ومع القبائل العربية في الشمال أولا ، ثم تطورت لتضم معظم القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها (٤٩) . ولم يكن بالامكان نجاح هذا النظام لولا الاصلاحات التي بداها قصي بن كلاب .

ومما يجدر ذكره أن هاشما مات بغزة والمطلب مات بردمان من أرض اليمن ، ونوفل مات بسلمان جهات فارس ، ولم يمت في مكة سوى عبد شمس بن عبد مناف (٥٠) . مما يشير إلى توسع دائرة التجارة المكية في عهد أبناء عبد مناف . ومما ساعد في توسع دائرة التجارة المكية أن فارس كانت تفرض الضرائب المرتفعة لمرور الحرير والتوابل أيام السلم ، وينقطع مرور السلع أيام الحرب فلا يبقى أمام تجار هذه السلع إلا الطريق الغربي الذي يصل اليمن بسورية برا (كان يطلق على الطريق الجنوبية المحاذية للبحر العربي ، طريق البخور ، وتتصل هذه بالطريق السابقة) (٥١) .

وقد أدرك المكيون دورهم إزاء هذا الطريق فاستخدموه بكفاية عالية وفق سياسة الحياد التي اتبعوها ، ووفق مصالح متبادلة مع الدول المجاورة . وحرص المكيون على مبدأ الإدارة الجماعية ممثلة بالملأ (مجلس دار الندوة) الذي قاد قريش في المجالات الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية .

وكانت قريش تعلق على ايلاف القبائل أهمية أكبر مما تعلقه على عهود الدول . لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية . ولعل في قصة أبي ذر الغفاري يوم اعتدى عليه القرشيون لإعلان إسلامه ، ما يوضح هذه الحقيقة ، فقد صاح العباس بن عبد المطلب بالمعتدين على أبي ذر قائلا : « ويلكم الستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام » فترك القرشيون أبا ذر وشأنه لما سمعوا مقالة العباس (٥٢) .

لقد كافح القرشيون طويلا ليخرجوا من محيط التجارة المحلية ، إلى دائرة التجارة العالمية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا أساتذة في فن التجارة يضرب ببراعتهم الأمثال ، ويستدلون ذلك من قول عبد الرحمن بن عوف : « لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا وفضة » (٥٣) . واتخذ القرشيون على الطرق التجارية المحطات والبيوت لا يدخلها أحد غيرهم ، ويحطون بها وهم في طريقهم إلى اليمن والشام والعراق . فقد ذكرها الطبري في تفسيره للآية : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٥٤) .

وساعد حلف قريش مع تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة على تأمين سير القوافل القرشية ، ذلك أن تميما من أكبر التجمعات القبلية الشمالية ، تمتد منازلها شرقا من وادي الرمة - عقدة المواصلات شمال الجزيرة - وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب . وهذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم بطرق المواصلات التجارية ما بين مكة والحيرة (٥٥) . ومما زاد من أهمية

تميم في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن الردافة - منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة - في الحيرة كانت لاحد بطون تميم (٥٦) . وهكذا نجد أن تميم أصبحت شريكة ادارية في الحيرة ومكة ، ولو أن طبيعة العلاقات بين تميم وقريش كانت تقوم على أسس أقوى وأمتن . ونظرا لأهمية تميم أصبحت القبائل في المنطقة تطلب ودها وتعقد المحالفات معها .

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب ، أخطر القبائل العربية على تجارة قريش ، لأن مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز الى بادية الشام (٥٧) . ويبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على هذا الارتباط ، لأننا نجد كلبا تقف في وجه الدعوة الإسلامية وتحاول التضييق على الرسول (ص) اقتصاديا ، عن طريق التعرض للتجار الانباط الذين كانوا يحملون الدقيق والزيت للمدينة ، والحق الاذى بهم لمنهم من ايصال بضائعهم الى المدينة ، مما اضطر الرسول (ص) أن يجهز حملة في السنة الخامسة للهجرة لتأديبهم (٥٨) . كذلك كان تحالف تميم مع أسد وطيء يخدم التجارة القرشية ، إذ تمكنت قريش من ارسال قوافلها آمنة في منطقة مكة .. الحزن (٥٩) ونحو دومة الجندل (٦٠) الى العراق .

وقد أدركت قريش أهمية تميم في المعادلة القبلية فأشركتها في الإدارة المكية ومنحتها بعض امتيازاتها ، كإشراكها في الإشراف على الإجازة والافاضة ، كما أسند لتميم دور الحكومة في سوق عكاظ (٦١) . وكانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر ، كما كانت على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجاري نحو الشمال، مثل جهينة ومزينة وغطفان .. وكانت غطفان مع أسد حليفين ، وأسد مع تميم ، وتميم مع قريش ، وكذا أشجع وسليم وبني أسد ، وكان لها مع هذه القبائل حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة القرشية جريا على النظام القبلي (٦٢) . وأقامت غطفان وهوازن وهلال محالفات مع أشرف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية (٦٣) . كذلك كانت قبائل عامر بن صعصعة تنزل بين ديار هوازن وسليم وثقيف . وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش ، إذ أن الطائف كانت مصيف رجال مكة الذين يملكون فيها الحدائق والأطيان ، وكانت خزاعة في مر الظهران (٦٤) ولها علاقة مماثلة مع قريش (٦٥) .

وكان لقبيلة عذرة صلات قديمة مع قريش لا بد وأن توطدت بالأللاف ، فكان لعذرة حلف مع جهينة ، جعل الأخيرة تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة المدينة ، ويمكن القول نفسه على قبائل بلي وبقيّة بطون قضاة النازلة على طول الطريق التجاري من مكة الى الشام (٦٦) .

نظرت قرش الى طريق العراق بأهمية لا تقبل عن طريق الشام ، لصلة هذا الطريق بطريق الحرير القديم ، حيث كان التجار العرب المكيون يحصلون على حرير الصين وتوابل الهند . وكان الجزء الشرقي من هذا الطريق تحت النفوذ الفارسي ، بينما كان الجزء الغربي خارج هذا النفوذ . وحاول الفرس مرارا السيطرة على هذا الطريق الى مكة ، ولعل حادثة البراض وقيام حرب الفجار كانت من المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، علاوة على المحاولات الأخرى التي قامت بها فارس للسيطرة على بلاد العرب بعامة والطريق التجاري الى مكة بخاصة (٦٧) . وكذلك استمر الروم في محاولاتهم للسيطرة على الطريق التجاري الغربي بين اليمن والشام عبر الحجاز (٦٨) .

وكانت بطون جذام تنزل على طول الطريق التجاري بين الحجاز والشام ومصر ، ولم تذكر المصادر أن جذاما ناصبت القوافل القرشية العداء . وقد حالف بعض رجال قبيلة سليم زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بني سليم (٦٩) . وكانت تنزل مع سليم قبيلة هوازن القوية ، وكان لها حلف مع ثقيف ، كما كانت سليم على صلات حسنة مع يهود يثرب الذين كانت صلاتهم وثيقة بقرش (٧٠) .

وحول مكة وجهات البحر كانت تنزل بطون كنانة مثل : القين وغفار وبكر وبلحارث ومدلج وضمرة بن بكر وليث بن بكر والدليل بن بكر ، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة ، وهذه البطون على صلة قوية بقرش بحكم الانتماء المشترك الى كنانة مثل بني عامر بن لؤي ، وبني فهر (٧١) .

ومن الجدير ذكره أن قرش الظواهر كان لها دورها في حماية المصالح المكية فكانت تغزو وتغير دفاعا عن قرش البطاح ، التي كانت تسميهم «الضب» للزوم الحرم ، ودخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامر ، وصاروا مع قرش البطاح وهم رهط سهيل بن عمرو وأخوته . فأما من دخل في العرب من قرش فليسوا من هؤلاء . وتفخر قرش الظواهر من قرش البطاح لظهورهم للعدو ولقائهم المناسر « طلائع الجيش » (٧٢) ، وإلى الجنوب من مكة كانت تتنائر قبائل عدة على طول الطريق الى اليمن ، ففي تبالة تنزل خثعم ، وفي نجران بنو الحارث بن كعب . وكان لمكة في هذه المواطن عيون كثيرة (٧٣) كما كانت هذه القبائل ترتبط بعلاقات حسنة مع قرش ، وكانت مراكز التجار ترسو في ميناء الجار حاملة الطعام من مصر الى الحجاز (٧٤) . وكان لقرش لأغراض الأمن محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة ، لكي تعاون قرش في الحروب اذا داهمتها . وسمي هؤلاء الإحلاف « بالاحابيش » (٧٥) .

وبحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية أصبحت سوقا دائمة للتبادل التجاري ، تحصل القبائل القريبة منها على حاجياتها (٧٦) ، هذا علاوة على سيطرة مكة على الاسواق الثلاثة التي تقوم قربها : عكاظ ومجنة وذى المجاز ، كما كان لها مراكزها التجارية في بصرى وأذرعات على طريق الشام (٧٧) .

وعلاوة على المصالح الاقتصادية المشتركة بين قريش والقبائل ، فقد أمعنت قريش في تعزيز هذه الروابط عن طريق التزاوج مع هذه القبائل . وتشير جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجلا من أسر قرشية شريفة الى هذه السياسة القرشية بوضوح (٧٨) . وتأثر شيوخ القبائل بقريش وأخذوا يشاركون في الرحلات التجارية ويتفاخرون بالاسفار وزيارة البلدان ودخول المدن والارياف ومقابلة الملوك والامراء (٧٩) . وقد ارتقت حرفة التجارة في نظر العرب واعتبرت من أشرف المهن ، وأصبحت قريش بتجاريتها تضارع بشهرتها في المجال الدولي شهرة حمير وفارس والحبشة . ففي رواية أنه وجد مكتوبا على بعض الآثار : « لمن ملك ذمار ، لحمير الاخيار ، لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار ، لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار » (٨٠) .

كانت مكة ملتقى الطرق البرية العالمية ، وقد استعملت هذه الطرق وجلبت من مختلف الاطراف السلع التجارية المطلوبة ، فعرفت طريق الهند والصين ، وحصلت من سوق الصين الرئيسي في « سرنديب » على الحرير وخشب الصندل كما جلبت من الهند التوابل ، وكانت هذه السلع أكثر ما تباع لسكان الامبراطورية الرومانية ، ولذلك كان الروم يحرصون على ضمان وصولها اليهم ، كما كانت منتجات الصين والهند تصل بلاد العرب ثم الامبراطورية الرومانية عن طريق البحر من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . وقد ظل هذا الطريق اiban العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب وذلك حتى بداية القرن السادس الميلادي (٨١) .

وكان النشاط التجاري يتحول من طريق الى آخر حسب تطور الاحوال السياسية في المنطقة التي غلب عليها الصراع بين الفرس والروم بغية توسيع رقعة النفوذ لتشمل فيما تشمل بلاد العرب ، ومن ثم السيطرة على محاور المواصلات العالمية لضمان وصول السلع المطلوبة . ومما زاد هذا الصراع ضراوة أن الفرس كانوا يفرضون على السلع المارة ببلادهم ضرائب باهظة ، وكان الرومان يشترون هذه السلع باثمان عالية لأن التجار يضيفون هذه الضرائب الى أسعار السلع .

وحاول الرومان تركيز طرق المواصلات التجارية بطريقتين الاولى : طريق الفرات حيث كانت السفن القادمة من الشرق عبر المحيط الهادي والخليج العربي تفرغ حمولتها عند نهاية هذا الخليج ثم تحمل برا عبر الطريق البرية داخل سورية والبحر الابيض المتوسط ومصر ، وقد قامت على هذ الطرق محطات تحولت مع الزمن الى مدن مزدهرة مثل الحيرة والبتراء وتدمر . وقد ازدهر هذا الطريق في الفترة السابقة على ازدهار التجارة المكية أي حتى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (٨٢) .

وتضاءلت أهمية هذا الطريق بعد انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والرومانية ، فأخذ الرومان يبحثون عن بديل له ، وتعاونوا مع الاحباش لتحقيق هذه الغاية ، فكان من محاولات الاحباش للسيطرة على اليمن ما هو معروف ومشهور . وعلى اثر الاحداث التي وقعت بين الفرس والروم والاحباش واليمن ازدهر الطريق التجاري البري من اليمن الى الشام عبر الحجاز ، وأضحى هذا الطريق الشريان الرئيسي للتجارة بسبب وصله بين اكبر سوقين استهلاكيين في المنطقة ، اليمن وما يتصل بها من بلاد ، وسورية وما يتصل بها من بلاد . وهذا التحول حول مكة من محطة صغيرة يقدم أهلها الخدمات للحجاج الى امبراطورية تجارية يطلب ودها الملوك والامراء . ويذكر ابن حوقل (٨٢) ان لهذا الطريق فرعين أحدهما يمر بتهامة والآخر عبر البوادي قبل أن يلتقيا في مكة . وكان هذا الطريق يمر بأكثر من عشرين محطة منها : تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيرا صنعاء (٨٤) .

وأما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين أساسيتين : الاولى ، حجازية تنتهي عند يثرب التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز . أما المرحلة الثانية فتمتد من يثرب الى بصرى ، وفيه أيضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها . وهناك طريق ثالث هام يصل مكة بالخليج العربي يقطع اليمامة ويصل الى موانئ الخليج ، والبحرين وجرها . ومن المراكز المهمة في هذا الطريق دومة الجندل التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية التي تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية . وكان يقام بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة ، المحلية والاجنبية . ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل : اللبان والمر والالادن والعقيق من اليمن ، والعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقيا الشرقية ، والقمح في بعض الاحيان من مصر ومن اليمامة . وكانت هذه البضائع تصل مكة أولا ثم يقوم التجار بتسويق جزء منها في الاسواق العربية (٨٥) .

ومن الشام كان التجار يجلبون الى مكة زيت الزيتون والقمح (من حوران

والبلقاء) والخمور والجواري والمواد المصنعة كالاسلحة والمنسوجات (٨٦) .

وكانت المنتجات المصرية تصل مكة عن طريق ميناء الجار . وقد اطلق المقدسي على هذا الميناء « خزانة مصر » (٨٧) . وكان يصل الى جزيرة العرب من فارس المسك والعنبر والجواهر (٨٨) . ومما ساهم في ازدهار التجارة المكية التعاون بين مكة والطائف التي كان بها عدد من الصناعات كدباغة الجلود والاسلحة والآلات الزراعية وأدوات الصيد (٨٩) . وكان العود الهندي والمسك والعنبر والقرفة (سيلان) من الاطياب الفضة واستمرت كذلك في الاسلام ، فقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « عليكم بالعود الهندي » (٩٠) كما ورد المسك في القرآن في سورة المطففين ، وختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٩١) .

يذكر محمد حميد الله نقلا عن ابن الكلبي أن القرشيين كانت لهم رحلتان في كل عام ، واحدة الى اليمن في الشتاء ، وأخرى الى سورية في الصيف ، وشيئا فشيئا بدا لهم ذلك شاقا . ويتساءل حميد الله ، هل كان ذلك لان القرشيين أصبحوا أغنياء أم لأن سفراءهم أصبحوا كبارا في السن؟! وحينذاك بدأ سكان تبالة وجرش ، وكذلك سكان بعض المناطق المحاذية لليمن يتولون نقل بضائعهم حتى مكة ، فكان تجار البر يحملون بضائعهم حتى المحصب جنوب مكة ، والتجار البحريون يحملون بضائعهم حتى جدة (٩٢) . ان ما أورده حميد الله يتعارض مع استمرار الرحلات القرشسية ، ويكفي أن نذكر أن معركة بدر كان من أسبابها اعتراض المسلمين واحدة من هذه الرحلات ، كما أنه من المعروف أن القراء كانوا لا ينقطعون عن دخول مكة تجارا أو وكلاء تجار ، ثم ان شهرة قريش بالرحلتين لا تعني أنهم لم يكونوا يرحلون الا رحلتين، اذ كان تجارهم يضربون في الآفاق معظم أيام السنة (٩٣) . كان من نتائج تزايد الثروة لدى تجار مكة عنايتهم بفقراء المدينة حتى أصبح البحث عن الفقراء واشراكهم في المشاريع التجارية جزءا لا يتجزأ من النشاط الاقتصادي العام . وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن « لايلاف قريش » تعني تراحم قريش وتواصلهم (٩٤) . وقد بدأ هذه العملية الجريئة هاشم بن عبد مناف ، ولعله أراد تمتين أواصر المجتمع المكي بتأليف قلوبهم وجعلهم جميعا شركاء في صنع المستقبل لتنجح سياسته في ايلاف القبائل . وقد أشار الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي (٩٥) لهذه الصفة عند أبناء عبد مناف فذكرها بقوله :

والخالطين فقيرهم بغيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

تذكر بعض المصادر أن ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبل الايلاف بفعل

الفقر والجوع عرفت باسم « الاعتقاد » ويعنى انه اذا اصاب احدى العائلات المكية صيق وجوع ، يخرج أفراد هذه العائلة الى الصحراء ويضربون على أنفسهم الإخبية بالتناوب حتى يموتوا دون أن يعلم بهم الناس (٩٦) . واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف ، الذي أوضح لقومه سوء هذه العادة وعواقبها الخطيرة على المجتمع المكي ، وبين أن الاعتقاد لا يتناسب مع شرف قرش وسمعتها الطيبة بين العرب ، وطلب الى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين واشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا (٩٧) كما هو واضح من شعر مطرود الخزاعي السالف الذكر (٩٨) .

يذكر الجاحظ أن قرش أخصبت بفعل الإيلاف وأتاه خير الشام واليمن والحبشة ، فحسنت حالها وطاب عيشها (٩٩) . وأبلغ تعبير عن الوضع الجديد الذي حققه الإيلاف لأهل مكة قول الله سبحانه وتعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١٠٠) يعني الضيق الذي كان به أهل مكة قبل أن يسن لهم هاشم الإيلاف ، ويقصد بالخوف ذلك الذي كان يحق بتجارهم بين العرب خشية العدوان عليهم ، ومصدق ذلك قوله تعالى : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (١٠١) .

لقد ذهب كستر الى أن فكرة مخالطة الفقير على الغني كانت المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي وقد قررها الشعر ، وهي تقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالأسر المحتاجة ، على أن اعتناق الإسلام اعتبر انحرافا عن هذا المثل (١٠٢) .

أن ما ذهب اليه كستر هو صحيح باستثناء ما جاء في العبارة الأخيرة حيث أورد رواية فيها لوم لأحد أبناء الأغنياء الطمعين لاعتناقه الإسلام وتتهمه بأنه هدم ما بنى أبوه باتباعه محمد (١٠٢) . وما ذهب اليه كستر يخالف المعروف والمألوف في المجتمع العربي إبان الدعوة الإسلامية ، فقد جاءت الدعوة لصالح الفقراء والمحرومين ونحن في غنى عن إيراد الآيات والأحاديث في هذا المعنى ، كما أن ما أخذ على محمد صلى الله عليه وسلم في حينه ، أن أتباعه من الفقراء والموالي والعبيد . ولعل كستر لم يوفق في فهم العبارة السالفة الذكر والمراد بها لوم نعيم بن عبد الله باعتناقه الإسلام وخروجه على جماعة قومه الذين يتزعمهم والده ويجمعهم حوله ، وكان التقليد الجاهلي يحكم بأن يخلف الابن أباه في مآثر الزعامة وإطعام الطعام لا الخروج عليه .

وكما قرر المجتمع المكي محاربة الفقر فقد قرر أيضا محاربة الظلم . ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلوما بمكة الا وتنصره . وكان مما تعاقدوا عليه أيضا مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم (١٠٤) . ومن الواضح أن حلف الفضول جاء بعد ماطلة في صفقة

تجارية بمكة ، وهو بأهدافه وغاياته الاقتصادية يقع ضمن سياسة الإيلاف .

وكانت الشراكة المكية تتم بالتراضي ، وغالبا ما تقسم الأرباح مناصفة ، أي أن صاحب المال يتقاضى نصف الأرباح والتاجر الذي يسافر بالأموال يأخذ النصف . وكان الكل منهمكا بزيادة ثروته (١٠٥) . وجلبت هذه الحركة معها أعمال الصرفة ، وتكدست في مكة العملات المتداولة ، ومهر الصيارفة بمعرفة أنواعها وأوزانها وأصالتها وزيفها ، والإماكن التي ضربت بها (١٠٦) . وأغلب العملات المستعملة كانت الدينار الرومي والدرهم الفارسي والحميري (١٠٧) . وكذلك مهر القرشيون بالأعمال التجارية ، وعرفوا أساليب الوساطة والمضاربة والسمسرة والمقايضة والتأمين ، وتداينوا بالربا الفاحش ، ونجد صدى ذلك في آيات من القرآن الكريم حملت على جشع التجار المكيين وذمت الربا والتعامل به ، ثم حرم الإسلام الربا واعتبره من الكبائر (١٠٨) .

وكان من أثر التجارة على المجتمع المكي شيوع الفنى والترف والاسراف . فقد ذكرت الروايات أن عبد الله بن جدعان مثلاً كان يشرب بكأس من الذهب ويأكل في صحاف الفضة ، كما ذكر الكثير عن رؤوس أموال التجار ، من أمثال عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كثير (١٠٩) .

ويستفاد من القرآن أن الترف قد شاع في الأوساط المكية وأصبح هم الناس متاع الدنيا وشهواتها . ومصدق ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرف ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١١٠) .

وعلى الرغم مما أخذ على بعض المكيين من اسراف وترف وقسوة في التعامل مع المسلمين الأوائل فإن الإجراءات المكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السابقة للإسلام حققت تكوين قاعدة متينة للانطلاقة المكية التي حصلت في عهد هاشم بن عبد مناف ، واستمرت في تعاضلها في ميادين المعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وتوج هذا التعاضل بانفجار الإسلام من مكة ليعم ضياؤه أنحاء المعمورة على أيدي رجالات مكة .

الهوامش :

- (١) ج كستر ، الحيرة ومكة ، وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ، بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- واصل هذا الكتاب بحثان :
- (a) Al-Hira, Same note on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.
- (b) Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social.History of Orient, V. 8 (1963). Leiden.
- (2) H. Lammens, La Mecque a la veille de l'Hegire,(extract from melange Univ . St. Joseph, Beirut, ix ., Fasc.
- H. Lammens, Enc. of Islam « Macca ».
- (3) Muhammad Hamidullah, AL - Ilaf, ou les Rapports Economiques - Diplomatiques de la Mecque pré-islamique,(extract des melanges Louis Massignon, Inst. Français de Damas, 1957.
- (٤) ظافر القاسمي ، ايلاف أو المعونات غير المشروطة ، مجلة الجمع العربي - دمشق مجلد ٣٤ ، نيسان ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٥ . و ابراهيم بيضون ، ايلاف القرشي ، بحث في التكوين الاقتصادي لمكة قبل الاسلام ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٥ . وعدد ٤٣ أيار ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٣٣ .
- (٥) القرشي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن علي الجوزي البغدادي (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) زاد السير في علم التفسير ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ط ١ ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م تفسير « سورة قرش » ص ٢٤١ وما بعدها .
- (٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن المشهور باسم تفسير الطبري ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، ١٩٧٣/٣ . وما بعدها .
- (٧) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ، دار صادر بيروت مجلد ٩ ، مادة « الف » .
- (٨) ن . م
- (٩) انظر تفسير « سورة قرش » في تفاسير : الطبري ، وابن كثير ، والبغوي ، والصابوني ، وسيد قطب . وبقية التفاسير لا تخرج عن ذلك .
- (١٠) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٢٥٢/٢ . والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧ - ٥٢٨ هـ ، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقوال ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ٢٣٥/٣ .

- (١١) أنظر بن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) المحبر رواية أبي سعيد بن الحسين السكري ، باعتناء الدكتوراة ايلزه ليختن شتيتير ، منشورات الكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٦٢ . وقارن حميد الله ، الايلاف ص ٢٩٩ .
- (١٢) تفسير الطبري « رواية ابن عباس » تفسير سورة قريش ١٩٧/٣ وما بعدها .
- (١٣) ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، أشرف علي طبعه عبد اسلام هارون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، مادة « ألف » .
- (١٤) أنظر H. Birkeland, THE LORD GUIDETH, Oslo, 1956, P. 106-110. وقارن كستر م . ج « الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية » ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م ، ص ٤٧ - ٤٨ . وقد اعتمد بيركلاند فيما ذهب اليه على رواية أبي حيان في البحر المحيط ، تفسير سورة قريش ٥١٥/٨ .
- (١٥) أنظر تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .
- (١٦) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣ ، ٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ ، ١١٢/١ .
- (١٧) أنظر الميني ، شرح البخاري ص ٣٦٥ . يعلق حميد الله على خبر زيارة الاسكندر لمكة فيقول : « وإذا كان المقصود به الاسكندر فان المصادر اليونانية لا تفيدنا في ذلك ، على الرغم من أن سفره من مصر الى الهند لا يلقي الامكانية النظرية لزيارة هذا المكان ، فهو ملك وثني ذو اعتقادات نظرية » الايلاف ص ٢٩٤ . وأنظر أيضا الازرقعي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ، اخبار مكة المشرفة ، رواية أبي اسحق بن أحمد بن اسحق بن نافع الخزاعي نسخة مصورة عن الطبعة الهندية ١٢٧٥ هـ ، ٨٤/١ . والحموي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت مادة « مكة » . وابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ت ٢٢٨ هـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر « رواية المتبي ٥٩/٢ - ٦٠ » .
- (١٨) ابن هشام ١٢٦/١ ، ويذكر أن هذا الشعر لحذافة بن جمح ، أنظر : (١) من المصدر السابق .
- (١٩) أنظر اللسان مادة « حمس » وابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت ٢٣٠ هـ ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت - دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، ٧٢/١ . وأنظر عن الحمس : ابن هشام ١٩٩/١ وما بعدها ، والازرقعي ١١٩/١ - ١٢٣ ، والمحبر ١٧٨ وما بعدها والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥ هـ / ٨٦٩ م ، كتاب البلدان ، نشر وتعليق صالح الطلي ، مستل من مجلة كلية الآداب - بغداد ١٩٧٠ م ص ١٧٢ وما بعدها ، والقرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق (٢٩٠ - ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ دار الجيل - بيروت ١٩٧٢ م ، ١٩٧/٢ وما بعدها الزروقي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، الامكنة والبقاع ، حيدر آباد ١٣٣٢ هـ ، ١٦٦/٢ وما بعدها ، السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٠٨ - ٥٨١ هـ / ١١١٤ - ١١٨٥ م ، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام ، بناية : طه عبد الرؤوف سعد « مكتبة الكليات الازهرية ، ٢٢٩/١ ، الافغاني ، سعيد ، أسواق العرب

في الجاهلية والاسلام ، دار الفكر ، ط ٣ بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ٧٥ وما بعدها ، وكستر ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢٠) انظر الاصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، ت ٣٥٦ هـ / ١٩٧٦ م ، كتاب الاغانى ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٥/١٩ وما بعدها ، وكستر ٦٣ - ٦٤ .

(٢١) ن . م

(٢٢) انظر حول ذلك : ابن حبيب ، المنق في أخبار قریش - تحقيق خورشيد أحمد فاروق طبعة الهند ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ص ٣١ - ٣٢ . اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الاخباري ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ٢١٣/١ . الجاحظ ، البلدان ، ص ٤٧ . الازرقى ١٠٤/١ ، ١٠٧ . تفسير الطبري ١٩٩/٣ - ٢٠٠ « تفسير سورة قریش » . القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، ذيل الامالي والنوادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٤ . والسهيلي ٢٢٥/١ . حميد الله ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ . م . وات ، محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ص ١٨ . الافغاني ص ٧٥ . وأحمد ابراهيم الشريف ، الندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية - الرياض .

(٢٣) لاماس ، ص ٤٣٨ .

(٢٤) ن . م

(٢٥) القالي ، ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٢٦) بلبايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢٧) الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ٣٥٠ - ٤٢٩ هـ ثمار القلوب في المصاف والمنسوب ، القاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢٨) ن.م ص ٨٩ وحول هاشم وأخذه الإيلاف ، انظر : ابن هشام ١٣٦/١ ، ابن سعد ٧٥/١ - ٧٦ ، والازرقى ٦٧/١ وما بعدها والسهيلي ١٦١/١ ، والطبري ، تاريخ ٢٥٣/٢ ، وابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ت ٦٥٦ هـ ، شرح منهج البلاغة ، دار الفكر - بيروت ١٩٥٦ م ، ٤٥٨/٣ .

(٢٩) انظر ابن هشام ١٣٦/١ . والبلاذري ، أحمد بن يحيى ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م أنساب الأشراف ، ج تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م . ٥٩/١ . والمسعودي ، أبو الحسن علي ابن الحسين ت ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ٥٩/٢ - ٦٠ . والقرطبي ، أبو عبد الله محمد ابن أحمد الانصاري ، الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبي » ط ١ ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م ، ٢٠٤/٢ ، وتفسير التزمخشري ٢٣٥/٢ ، والقالي ، ذيل الامالي ٢٠٤-٢٠٥ ، والمنق في أخبار قریش ص ٣١ وما بعدها ، والمجبر ١٦٢ .

(٣٠) ذيل الامالي ص ٢٠٤ .

(٣١) انظر ظافر القاسمي ، الإيلاف ، ص ٢٥٥ .

- (٣٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبي ص ٧١ ، وثمار القلوب ص ٨٩ ، وذيل الامالي ٢٠٤ .
- (٣٣) سورة القصص ، آية ٥٧ . وانظر حول ذلك تفسير القرطبي ٢٠٩/٢٠ « تفسير سورة قريش » .
- (٣٤) انظر حول العهد والايلاف لابناء عبد مناف ، المحبر ص ١٦٢ ، والمنق ٣١ - ٤٠ ، وذيل الامالي ص ٢٠٤ وما بعدها ، والبلاذري ، انساب ٥٩/١ ، واليعقوبي ، تاريخ ١ / ٢١٣ .
- (٣٥) انساب ٥٩/١ .
- (٣٦) اللسان « عصم » .
- (٣٧) تاريخ ٢٥٢/٢ .
- (٣٨) اللسان « حبل » .
- (٣٩) اللسان « حلف » ، وثق .
- (٤٠) انظر الجاحظ ، البلدان ص ٤٧٢ ، وابن سعد ٧٥/١ .
- (٤١) البلدان ص ٤٦٦ .
- (٤٢) الاغانى ٦٤/١ ، وجواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٩٣/٧ .
- (٤٣) ن . م .
- (٤٤) ابن بكار ، أبو عبد الله الزبير (١٧٢ - ٢٥٦ هـ) جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة العروبة ، القاهرة ١٣٨١هـ ، ص ٣٦٧ رقم ٦٤٤ . والكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بعناية رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٦ - ٧ .
- (٤٥) الطبقات الكبرى ٧٨/١ .
- (٤٦) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - من كتاب فضل هاشم ص ٧٠ .
- (٤٧) ابن سعيد الاندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى ٦١٠ - ٦٨٥ هـ ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، عمان ١٩٨٢ « رواية البيهقي » ص ٣٢٧ . وانظر صالح درادكة ، الردافه ، ملحق (١) .
- (٤٨) حول مقابلة عبد المطلب لابرهة الحبشي، ومولد الرسول الكريم، انظر ابن هشام ٩٤/١، والبلاذري، انساب ٦٧/١ ، والطبري ، تاريخ ١٣٣/٢ - ١٢٤ .
- (٤٩) انظر بياضون « المقالة الثانية » ص ٢٨ .
- (٥٠) ابن هشام ١٣٦/١ - ١٢٩ . المحبر . مروج الذهب ٩٠/٢ . تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .
- (٥١) م . وات ص ٢٣ .
- (٥٢) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، دار الجيل ، بيروت ٥٩/٥ . ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م « الاصابة في تمييز الصحابة » دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٢٨هـ ، ٤ / ٦٢ رقم (٢٨٤) .

- (٥٣) ابن سعد ٢ / ١٢٦ .
- (٥٤) سورة النور ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين السابقتين .
- (٥٥) انظر G. Levidelle vida, Tamim, E. I. (1) 1964. vol.II,P . 643 - 644.
- (٥٦) انظر صالح درادكة ، الردافة ص ٢٢ وما بعدها .
- (٥٧) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني للهجرة ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٨ م ص ١٠ . وكستر ص ٥٨ .
- (٥٨) انظر الواقدي ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز مصورة عن طبعة اكسفورد ١٩٦٦ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ١ / ٤٠٢ - ٤٠٣ . ابن سعد ٢ / ٦٢ - ٦٣ ، المحبر ١١٤ « غزوة دومة الجندل » وياقوت « دومة الجندل » . اتخذت كلب ضمنها «ود» في دومة الجندل . انظر أبي الكلب ، أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، كتاب الاصلام ، تحقيق أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٢٨٤ هـ - ١٩٦٥ ص ١٠ .
- (٥٩) موقع قريب من الكوفة من أجل مراتب العرب - ياقوت - حزن يربوع .
- (٦٠) المزروقي ، الامكنة ٢ / ١٦٢ ، كستر ٥٨ .
- ودومة الجندل حصن قرب جبلي طيء بين تيماء ووادي القرى ، وهو حصن أكيدر الملك الكندي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد غزاه في السنة الخامسة للهجرة كما وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك سنة ٩ هـ . ياقوت « دومة الجندل » .
- (٦١) كستر ص ٧٦ .
- (٦٢) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ٢٢ . وانظر الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ت ٣١٠ هـ ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة - الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ . ص ٦١ « الحليفان أسد وطى » .
- (٦٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) - نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ١ / ٣٤٥ .
- (٦٤) مر الظهران : الظهران واد قرب مكة . وعنده قرية يقال لها « مر » ياقوت « مر الظهران » .
- (٦٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .
- (٦٦) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ٢٨٤ - ٥٦ هـ جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٣٩١ - ١٩٧١ م . ص ٤١٩ - ٤٢٠ . وابن دريد ، أبو بكر محمد ابن الحسن ٢٢٣ - ٢٢١ هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السند الحمدي ، ١٣٧٨ - ١٩٥٨ م ، ص ٢٢٠ . أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٠ .
- (٦٧) من بين المحاولات الفارسية السيطرة على سواحل الخليج العربي ، ثم سيطروا على اليمن ومنها محاولة السيطرة على مكة عن طريق نشر الزندقة في عهد قباض والحارث بن عمرو الكندي ثم حادثة البراض . انظر ابن هشام ١ / ١٨٤ وما بعدها ، واليعقوبي ، تاريخ ٢ / ١٢ ، ونسوة الطرب ص ٣٢٧ .

- (٦٨) استمرت محاولات بيزنطة منذ حملة ايليوس غالوس ٢٤ ق.م على اليمن الى تنصير وتنصيب عثمان ابن الحويرث القرشي ملكا على مكة . انظر ابن هشام ٢٢٤/١ « عثمان بن الحويرث » . والزبيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله ١٥٦ - ٢٣٦ هـ ، كتاب نسب قريش بمنايا ١ . ليفي بروفنسال ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، والزبير بن بكار ص ٤٢٥ ، ونشوة الطرب ص ٣٥٠ .
- (٦٩) الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .
- (٧٠) ن . م .
- (٧١) ن . م .
- (٧٢) انظر البلاذري ، انساب ٢٩/١ - ٤٠ .
- (٧٣) اليعقوبي ، البلدان . مطبوعات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ص ٧٥ .
- (٧٤) ن . م .
- (٧٥) الاشتقاق ص ٢٨٢ ، ابن سعد ٤٧/٢ ، ٧٠ ، وابن حزم ٢٦٣ .
- (٧٦) ابن الاثير ابو الحسن علي بن ابي الكرم ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ المطبعة النيرية ، القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ٢٤١/١ ، والشريف ، دور الحجاز ص ٤٥ . وابن كثير ، أبو الفداء المشقي ت ٧٧٤ هـ ، والبداية والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت - ومكتبة النصر - الرياض ، ط ١ ١٩٦٦ ، ٤٥/٣ .
- (٧٧) جواد علي ٣٠٦/٧ وما بعدها .
- (٧٨) كسندر ص ٨٩ - ٩٣ .
- (٧٩) جواد علي ٣٠٦/٧ .
- (٨٠) انظر ابن هشام ٧٠/١ ، والهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٥٠ - ٣٦٠ هـ ، كتاب الاكلیل ، ج ٨ تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٣٩٩ - ١٩٧٩ م ، ٢٢٩/٨ .
- (٨١) بيضون ، المقالة الاولى ص ٢٣ .
- (٨٢) ن . م .
- (٨٣) ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت . ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٨٤) ن ٣٠ وانظر اليعقوبي ، البلدان ٣١٧ وما بعدها (ط . ليدن) وابن خرداذبة ، المالك والمالك ١٣٤ - ١٣٦ ، والاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المعروف بالكرخي ، كتاب مالك المالك ، نشر دي جوج ، ١٩٧٢ م . ص ٢٣ وما بعدها .
- (٨٥) انظر ابن شبه ، أبو زيد عمر بن شبه الخيري البصري ١٧٣ - ٢٦٢ هـ ، تاريخ المدينة ط ٢ تحقيق فهم شلتوت ، دار الاصفهاني للطباعة بجدة ، على نفقة السيد حبيب محمود محمد ١٤٠٢ هـ ، ٢٣٥/٢ « ذكر أن اليمامة كانت تزود مكة بالتمج » . وانظر جواد علي ٢٢٠/١ .
- (٨٦) اليعقوبي ، تاريخ ٢٧٠/١ .
- (٨٧) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي جوج ، بريل ١٩٠٦ ص ٩٧ . بيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٨٨) الافغاني أسواق العرب ص ٢٥١ .

- (٨٩) لامانس الطائف ص ١١٩ ، ويضون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٩٠) البخاري ١٦١/٧ * جواد علي ٢٣٧/٧ .
- (٩١) الآية ٢٦ . وحول السلع التجارية انظر الجاحظ ، التبصرة بالتجارة ص ٢٤ وما بعدها واليعقوبي ، بلدان ص ٥١ (ط . النجف) . ثمار القلوب ص ٤٢٣ . جواد علي ٢٢٧/٧ وما بعدها .
- (٩٢) الايلاف ص ٣٠٠ .
- (٩٣) مما يشير الى أن الرحلات التجارية كانت لا تنقطع . فقد خرج المسلمون بعد هجرتهم عدة مرات في سنة واحدة لاعتراض القوافل التجارية بين الشام ومكة . انظر مفازي الواقدي ٩/١ وما بعدها ، وابن هشام ٥٩٠/١ وما بعدها ، وابن سعد ٥/٢ وما بعدها وابراهيم شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ٢٤ .
- (٩٤) انظر تفسير سورة قريش عند السيوطي ، الدر المنثور ٣٩٧/٦ .
- (٩٥) انظر ذلك في البلاذري ، انساب ٦٠/١ ، الاذري ٦٨/١ ، والديار بكري ، حسين بن محمد ابن الحسين ، الخميس في احوال النفس نفيس ، المطبعة الوهيبية ، مصر ١٢٨٣ هـ ، ١٥٦/١ .
- (٩٦) انظر تفسير القرطبي ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ ، السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١ هـ ، الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار المعرفة ١٣٧٧ هـ ، ٢٩٧/٦ ، الشامي ، محمد بن يوسف الصالحي ت ٩٤١ هـ ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ٣١٧/١ ، كستر ص ٥٠ .
- (٩٧) ن . م .
- (٩٨) ن . م .
- (٩٩) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - فضل هاشم - ص ٧٠-٧١ ، وانظر ثمار القلوب ص ٩٠ .
- (١٠٠) سورة قريش آية ٤ .
- (١٠١) سورة الانفال ، آية ٢٦ .
- (١٠٢) كستر ٥١ - ٥٢ .
- (١٠٣) انظر ابن هشام ١٤١/١ ، وكستر ٥٢ .
- (١٠٤) لامانس ٤٣٩ .
- (١٠٥) ن . م .
- (١٠٦) ن * م ٤٤١ .
- (١٠٧) ن . م ٤٤٠ .
- (١٠٨) انظر على سبيل المثال ، سورة البقرة ، الايات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ . وسورة آل عمران ، آية ١٣٠ ، وسورة النساء ١٦١ ، وسورة الروم ٣٩ .
- (١٠٩) انظر مروج الذهب ٣٤١/٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن جدعان في نشوة الطرب ٢٥٣/١-٢٥٥ ، وفي الاوسى ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الانري ، مصر ١٣٤٢ هـ ٨٧/١ وما بعدها ، وتراجم الصحابة الاخرين في ابن سعد ٥٣/٣ ، ١٠٠/٣ ، ٢١٤/٣ - ٢١٤/٣ .
- (١١٠) آل عمران ، آية ١٤ .